وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد
ثقافة القاهرة

أدب الغضب

مؤتمر اليوم الواحد
لعام ٢٠٠٩ م

الهيئة العامة لقصور الثقافة
مؤتمر أقاليم القاهرة الكبرى
لليوم الواحد ٢٠٠٩

أدب الغضب بين قانون الطبيعة والسلطة

د. عز الدين نجيب

الحياة .. هى غاية الادب والفن على مر التاريخ، حتى فى عصور الحضارات القديمة التى كانت تكرس الفن للدين والآخرة، فتلك الآخرة ليست إلا صورة مثالية للحياة الدنيا التى يسودها الحق والعدل والجمال والحرية، وقديما أعلن إخناتون ثورته على كهنة آمون لأنهم أعطوا ظهورهم للحياة على الأرض مولين وجوههم نحو العالم السفلى، حيث مملكة أوزيريس الرهيبة ومحكمتها لحساب البشر عما اقترفوه فى دنياهم منذرة إياهم بأشد انواع العقاب؛ ليؤمن بدلا من ذلك بدفء أشعة آتون رع التى تمتد كأذرع حانية تحتضن الحياة والبشر وتدعو للحب والسلام، وكانت تلك أول ثورة دينية شهيرة فى التاريخ تزعمها شاعر فى ثياب قديس وملك... ولم تكن تلك الدورة العقائدية والاخلاقية لتكتمل إلا بثورة مشابهة فى الأدب والفن، على النحو الذى قرأناه فى قصائد إخناتون وشعراء عصره، ورأيناه فى لوحات وتماثيل فنانيه، برؤية تتجاوز كل القيم والمعايير الجمالية السابقة.

من أجل الحق والعدل والجمال والحرية ــ إذن ــ يغضب الأدباء والشعراء والفنانون على مر العصور؛ ليقيموا، ولو فى عالم الخيال، مملكة تتحقق فيها هذه الآمال حتى ولو بدت إبداعاتهم صادمة ومزلزلة أحيانا لأسس البناء الحاكم لمصائر البشر فى مجتمعاتهم أو فى الحياة الإنسانية عامة، وقد تكون الأسئلة

الوجودية حول عبثية الحياة والمصير الإنسانى فى أعمال الأدباء الوجوديين أو أدباء اللامعقول تعبيرا عن عدم الامتثال للصيغ المجانية الجاهزة لمعنى الحياة، وعن الإصرار البشرى المشروع على فك طلاسم الوجود، وهو مايمارسه كذلك فنانون تشكيليون وسينمائيون سعيا لاكتشاف المجهول تحت مسميات لمدارس شتى... أليس ذلك ما فعله أيضا شعراء القبائل البدائية بحثا عن إجابات لأسئلة عن ظواهر السحر والأسطورة والأديان والعقائد والأخلاق والفنون والآداب، بل وعلوم الطبيعة والعلوم الإنسانية على مر التاريخ؟.. وألم يكن رفض الفنان والشاعر لعمليات التدجين والانصياع لقوانين السلطة وأعراف المجتمع محركا نحو التغيير لبعض هذه القوانين والأعراف؟ ألم تكن قصائد الهجاء فى الأدب الجاهلى وما تلاه فى العصور الإسلامية تعبيرا عن غضب الشعراء على ظلم الحكام حتى وإن لم نبرىء بعضهم من أغراض شخصية؟

غير أن كل ما شهده عالم الأدب والفن على مر التاريخ يتضاءل أمام ما شهده القرن العشرون من حركات الغضب والثورة، حيث تنامت، بشكل غير مسبوق، روح الاستقلال لدى الأديب والفنان عن السلطة والمؤسسة أيا كان نوعها، وتزايدت فى المقابل ضراوة الحرب والانتهاكات الإنسانية والدكتاتورية الحاكمة ومظاهر الصراع الطبقى وانفجارات الثورات الاجتماعية، كما تزايدت مظاهر التهميش للإنسان ودفعه إلى الاغتراب وانعدام اليقين، وإلى شعوره بالضآلة فى مواجهة الآلة ومؤسسات السلطة والثروة والإعلام، مما أدى إلى النوازع الفردية والسلبية أو العدوانية أو الثورية هنا وهناك فى شتى أنحاء العالم، كل ذلك انعكس فى أشكال عدة من التعبيرات الأدبية و الإبداعية، يتسم

بعضها بنزعة اجتماعية، وأخرى بنزعة متمردة على الأبنية الفوقيـــة، وثالثـــة بنزعة ساخرة وهجائية فى أطر سريالية، ورابعة بنزعة تدميرية للأشكال الفنية المستقرة لجماليات الأدب والفن حتى تصل إلى التشويه والتحطيم للُّغة والبنـــاء الفنى المتفق عليهما، بل لوسائل التواصل مع الجمهور ... وهو ما انتهى، فـــى عصر ما بعد الحداثة خلال الثلث الاخير من القـــرن العـــشرين، إلـــى ســـعى الشعراء والكتاب والفنانين نحو استفزاز الجمهور بأعمال أقرب إلى الجنون مثل استخدام المخلفات الدنيئة والنفايات الحقيرة بأنواعها لصدم الجمهور بأعمال تقام فى الشوارع والحدائق أمام المشاهدين ثم تيدم بعد عملية المـــشاهدة والتفاعـــل حتى ولو بالاستهجان والرفض، ومثل إقامة معرض بغير لوحات أو تماثيل أو أى شىء فوق الجدران أو داخل الفراغات، حيث تكون هناك قاعات خالية تماما من كل شىء، وربما تكون مظلمة أيضا، وربما نجد المقابل لـــذلك فـــى الأدب بإصدار صفحات داخل الكتاب خالية من أية كتابة، بل هناك كتب كاملة صدرت فارغة بهذا الشكل.

إن مثل هذه الظواهر جاءت انعكاسا لأزمة حضارية أفرزتها الرأســـمالية المتوحشة فى دول الغرب الصناعية، بما أدت إليه من حـــروب اســـتعمارية وانحلال أخلاقى واغتراب إنسانى، لكن أثرها على الفنانين والأدباء انتقل إلـــى كثير من دول العالم التى لم تعش بالضرورة مثل هذه الأزمة، لكنهـــا تماهـــت معها بفعل التبعية الثقافية من جانب الدول الفقيرة والنامية تجاه الدول المتقدمة، وكذلك بفعل المركزية المتوارثة فى قيادة الغرب لحركات الأدب والفن حـــول العالم كامتداد للهيمنة السياسية والاقتـــصادية، وجـــاءت ثالثـــا بفعـــل غيـــاب

المشروعات القومية للتحرر والنهضة فى دول العالم الثالث بدءا من الثلث الأخير من القرن العشرين، بما حاد بالمثقف عموما، والمبدع خصوصا، عن دوره فى قيادة وعى الأمة، وفى تغيير المجتمع نحو التحرر والعدالة والتقدم، فغلبت عليه الطموحات الفردية لتجاوز حدود وطنه إلى آفاق العالمية، التى كثيرا ما تنتهى إلى سراب.

غير أن هذه الصورة العامة لم تطمس كثيرا من الإبداعات الأدبية والفنية فى دول الغرب وغيرها فى مختلف القارات، حيث امتلك مبدعوها وعيا بالمعنى الإيجابى للغضب الذى ينبع من ضمير إنسانى يقظ، ومن مخزون ثرى من القيم الكامنة فى وجدان شعوبهم، ومن إيمان عميق بالحياة والإنسان وقدرته على تحقيق حريته وصنع مصيره، فى مواجهة عوامل الاستبداد والاستغلال، وضد مشعلى الحروب ومستعبدى الشعوب، مستخرجين من قلب الغضب قوى روحية خلاقة، وحلما بالتغيير والتقدم.

إن الأمثلة لاتحصى فى الأدب والفن فى كل من أوروبا وإفريقية وأمريكا اللاتينية معبرة عن طاقات ثورية متفجرة فى الشعر والقصة والرواية والمسرح والفن التشكيلى والموسيقى وغيرها، ولم تقتصر ثوريتها على مضامينها الفكرية ومعانيها الأدبية، بل تعدتها إلى أساليبها ورؤاها الجمالية المبتكرة التى أسست لمدارس واتجاهات حداثية مهمة حفرت أماكنها فى تاريخ الحركات الإبداعية منذ الحرب العالمية الثانية، ولعل الجانب الأكبر منها كان من نصيب دول أمريكا اللاتينية، سواء فى الشعر والرواية أو الفن التشكيلى، محطمة للأيقونات القديمة التى رسختها الثقافة الأوربية خلال عهود ممتدة فى ارتباطها بالطبقات

البرجوازية والنخب الاجتماعية والثقافة المسيطرة، حيث استحالت تلك الأيقونات قوالب جامدة مستنسخة من الأدب والفن فى أوروبا وأمريكا، فإذا بالحركات الإبداعية الجديدة لأدباء وفنانى أمريكا اللاتينية تغزو تلك الثقافة الغربية وتنتزع منها عرش الولاية على ثقافة العصر، وهى مخصبة بموروث هائل من التراث الشعبى والروح الفطرية المتوقدة بالحياة، ومدفوعة بعوامل الطبيعة والتاريخ والأسطورة التى تسرى فى أوصال شعوبها.

ولا نستطيع إغفال إبداعات شامخة لأدباء من خارج أمريكا اللاتينية مثل الشاعر والمسرحى لوركا فى إسبانيا، والروائى همنجواى فى أمريكا، والشاعر ناظم حكمت فى تركيا، والشاعر أراجون، والروائى البير كامى بفرنسا، والروائى إيفو أندرتش فى يوغسلافيا سابقا، والأمثلة لا تحصى، بداية من الشاعر بابلو نيرودا، وليس انتهاء بالروائى والقاص جابرييل جارسيه ماركيز، والروائى ماكسيم جوركى فى اليونان. ونلاحظ أنهم جميعا دفعوا ثمنا غاليا من حريتهم يصل إلى حد السجن والتشريد والنفى، بل دفع بعضهم حياته ثمنا لمواقفهم الثورية ضد قوى القهر والاستبداد ومشعلى الحروب، باغتيالهم بأيد فاشية، أو بإنهاء حياتهم بأيديهم شخصيا كرد فعل عنيف لضغوط نفسية فوق طاقة احتمالهم.

فإذا انتقلنا إلى أدبنا العربى، خاصة فى مصر، فسوف نجد سجل الغاضبين يبدأ فى عام ١٩٢٨ بالكتاب العاصفة للأديب طه حسين "فى الأدب الجاهلى"، ولا ينتهى بعام ١٩٧٦ بقصيدة الشاعر أمل دنقل "لاتصالح".. حيث يستمر، وإن يكن خافتا، فى العقود التالية، وتتفاوت حدة الغضب والثورية فى مختلف

الأجيال والكتاب، ولعل من أبرزهم بيرم التونسى ويوسف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوى وصلاح جاهين ونجيب سرور وعبد الرحمن الأبنودى ويحيى الطاهر عبدالله ومحمد حافظ رجب وصنع الله ابراهيم وأحمد فؤاد نجم وعلاء الأسوانى... غير أن معنى الغضب لا يقاس هنا بالصراخ أو الخطابية أو إعلان السخط، بل يقاس بالموقف الفكرى الواضح ضد أوضاع بعينها فى المجتمع أو مواجهة مع القوى المضادة للحرية أو العدالة أو حقوق الإنسان، مع التسليم بداية بأن يكون العمل قبل كل شىء أدبا جيدا ذا شكل فنى متماسك وجذاب حتى ولو كان صادما للذائقة التقليدية، وبأن يحمل خصائص ذاتية مميزة فى الأسلوب والبناء تبقى كقيم راسخة بعد أن تتغير الدوافع الموضوعية والنفسية لكتابته.

وربما كان الأمر بالنسبة لحركة الفن التشكيلى أكثر تحديدا فى حقبة معينة، وهى سنوات الأربعينيات من القرن الماضى التى شهدت تشكّل عدة جماعات فنية أعلنت الغضب على الأوضاع السائدة، بدءا من أوضاع الفن وامتدادا لأوضاع المجتمع والسياسة فى مصر والعالم وهى جماعا ت "الفن والحرية" و "الفن المصرى المعاصر" و "الفن المصرى الحديث"، وتبلورت من خلالها تيارات ثورية فى الفن المصرى مثل السريالية والتجريدية والتعبيرية والواقعية الجديدة، ومن فرسانها: رمسيس يونان وكامل التلمسانى وفؤاد كامل وعبد الهادى الجزار وحامد ندا ومحمد عويس وإنجى أفلاطون وجاذبية سرى وجمال السجينى وسعد الخادم وغيرهم.. ولكن صورة غضب الفنانين قد هدأت بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وتم تدجينهم واحتواؤهم فى مؤسسات العهد الجديد، ولعل هذا نفسه ماحدث بالنسبة للكتاب بمختلف أطيافهم بدرجات متفاوتة.

وقد مرت بمصر عهود وأحداث كانت تستدعى أكثر من سَوْرة غضب، ولكن ذلك كان نادرا ما كان يحدث، وإن حدث فكان على استحياء وبأسلوب التورية غالبا... ولم تستطع هذه السورات الصغيرة المتقطعة أن تشكل تيارا ممتدا فى الأدب والفن فى الثقافة المصرية بوجه عام، حيث كان الاحتماء بالرمز والكتابة والفانتازيا وألاعيب اللغة هو الغالب على محاولات الأدباء للتعبير عن رفضهم لما هو قائم، فيما كان أدب الأزمة الإنسانية الغارقة فى الذاتية وأدب التساؤل والمفارقة والسخرية والتهويم فى المطلق وأدب المشكلات الاجتماعية الجزئية وغير ذلك... هى الأشكال والقوالب الفنية التى حُبست فيها أغلب موجات الشعر والقصة للأجيال المتلاحقة.

إن ذلك يدعو للتساؤل عن أسباب ضعف موجات الغضب فى الأدب المصرى، هل يرجع إلى قبضة السلطة الحاكمة الباطشة بحرية التعبير؟ ولكن ذلك لا يكاد يخلو منه أى بلد من الدول التى أفرزت أدبا ثوريا مما أشرنا إليه سالفا.

هل يرجع ذلك إلى يأس المبدع من وجود حركة ثورية تتبنى فكره وتسانده وتشجعه على الاستمرار مثل الأحزاب وحركات المد الجماهيرى والوعى السياسى، لكن المفترض أن يكون المبدع الثورى هو الذى يقود الحركات الجماهيرية وليس العكس؟

فى اعتقادى أن الأمر يرجع إلى الطبيعة النيلية لمصر،حيث تسترخى الحياة على امتداد جانبى النهر تحكمها سلطة مركزية ذات قبضة من حديد، وتعاونها

سلطة أخرى للمؤسسات الدينية بمنظومة من القيم الجبرية الحاكمة لسلوك الناس وعاداتهم وتقاليدهم، مع اختلاف الأديان من عصر إلى عصر .

إن الطبيعة الجغرافية شكلت نسقا فكريا للمجتمع والفرد يميل إلى التسليم المطلق للمقادير، ومنها الأوضاع الطبقية والسياسية على أرض الواقع، كما يميل إلى انتظار العدل والخلاص من القوى السماوية، وإلى تجنب الثورة وإعلان الغضب أو المقاومة ضد الحكام إلا فى حالتين استثنائيتين: الأولى هى الغزو الخارجى، والثانية هى المساس بهيبة الدين.. وقد أدى ذلك إلى ضعف الحياة السياسية والحزبية، وإلى العزوف الشعبى عن ممارسة الديمقراطية، وأدى بالتالى إلى تهافت قوة وقيمة الرأى العام، وهو البيئة الخصبة لنمو حركات الفكر والثقافة والأدب والفن، وكان ذلك كفيلا بأن يجعل الأدباء والفنانين نخبة محدودة تعيش فى عزلة عن المجتمع، كقبيلة تتحدث بلغة خاصة لا يفهمها غير أفرادها ومن يدور فى فلكهم، وهكذا أصبح قدرهم هو اجترار الأحزان لا إشعال الغضب، وقد تعلو قيم الحياة وتسمو معانيها من خلال أعمالهم، لكنها تتجنب الصدام والمواجهة مع مؤسسة السلطة ومؤسسة الشريعة ومؤسسة التقاليد الأخلاقية المغلقة.

ومع ذلك فإن سورات الغضب المعدودة والمحدودة فى تاريخنا الأدبى والفنى لم تذهب هباء، بل حفرت مجراها فى ذاكرة الأدب وذاكرة الأجيال المتلاحقة، بدليل أن هذه الأجيال لا تزال تتغنى بموقف طه حسين وبتداعيات قضية "الأدب الجاهلى"، ولا تزال تقرأ قصص ومقالات يوسف إدريس بعشق

متزايد، ولاتزال قادرة على الدهشة والشغف بقصائد صلاح جاهين وبقصص محمد حافظ رجب ويحيى الطاهر عبدالله وعلاء الأسوانى وغيرهم..

لقد غضبوا جميعا من أجلنا وبدلا عنا، ونجحت كوابح المؤسسات الثلاثة سالفة الذكر فى إخضاعنا لقانون النهر الأبدى المنساب والمتواتر مع انتظار الفصول الأربعة والمناخ المعتدل ومواسم الزراعة المستقرة على مر التاريخ.

فهل أصبح أديب هذا الوطن وضميره نجما صغيرا يدور فى فلك قانون الطبيعة والسلطة؟

د. عز الدين نجيب

مارس ٢٠٠٩